علم معانى أصوات الحروف

سر من أسرار العربية

نرجو أن نصل إلى حقيقته فى السليقة العربية

(٣)

أفضنا فى الكلمة السالفة - فى ذكر الحروف الحلقية ، وبدأنا بالهمزة ونظرنا بعض النظر فى معناها ماهو ؟ وحسنٌ أن نعود إلى استقصاء القول فى هذه الهمزة وسائر الحروف الحلقية ، واستخراج أكثر معانيها من الفطرة . ثم كيف هو دورانُها فى الكلام العربى ، ثم كيف تنزلُ عن بعض معانيها من تركيب الكلمة لدلالة أخرى تفضى إلى معنىً يكون شارعًا من الأصل أو مستمدًّا منهُ أو عارضًا فيهِ ، أو ليكون اعتراضها مسقطًا لبعض المعنى فى حرفٍ آخر ليعادَل بهِ إلى القصد فى إرادة معنى بعينِه ينشأ من اشتراك هذه الحروف الدالة فى تركيب الكلمة . ويقتضينا هذا المذهب أن نسبقَ إلى عرض بعض معانى سائر الحروف العربية فى مدارج القول ، إذ كان الاشتراك بين هذه الحروف فى الكلمة مدعاةً للبيان عن معانيها . وإذ كان ذلك كذلك ، فستجد كلامنا عن هذه الحروف الحلقية مختلطًا بغيره من بيان معانى حروف أُخر من حروف اللسان العربى . وإنما أردنا ذلك اختصارًا وتخفيفًا . فلو ذهبنا ننشىء لكل حرف مقالًا لغلبنا الجهد ، ولكان على القارىء أن يبقى مغموسًا فى فكره فى هذا الباب أشهرًا بعدد حروف العربية . ونحن إنما نجعل كلامنا هذا كالتذكرة لنا وللقراءِ فى هذا العلم ، ولأن ننتظر - حتى يأذن الله فيتيح لنا من الفراغ والهمة والجدة والتوفيق ما هو بعض نِعَمِه علينا وآلائهِ - أَوْلَى وأخلقُ ، ولأن يكون ذلك مخبوءًا لنا حتى نضع كتابنا فى « سر العربية » [1] - أحبُّ إلينا وأَجود للبيان ، فإن بيان الرأى - فى سعةٍ من كتابٍ

* المقتطف ، المجلد ٩٧ ، يونيو ١٩٤٠ ، ص : ٥٧ - ٦٣

(١) لم يُتَح للأستاذ شاكر أن يضع مثل هذا الكتاب ، وليته فَعَل ، فقد فاتنا بذلك خير كثير .

يؤلَّف لغرضٍ يشملهُ - أحرى بالاستفاضة فيه من مجلة تحدّ الرأى بحدود من الورق !

ولقد علمتَ أن ضرورة الحياة الفطرية الأولى هى التى نزعت بالحرف الحلقيّ المغسولِ - المسمى فى عبارة المتكلمين « بالهمزة » - أن يكونَ هو أقربَ الحروف إلى النداءِ ، والتعجب ، والاستفهام ، والإشارة ، والتنبيه ، والأمر ، والتحذير ، وذلك لأن هذه المعانى كلها ليست إلَّا أقربَ الحوافِز التى تحفِزُ الإنسان الفطريَّ إلى ارادة التعبير ، لفرط حاجته إلى كل منها بضرورة الطبع ، لما يلاقيه مما يَصدِمُهُ ويتذَمَّرُ عليه من تصاريف الحياة وتخاليف الأحوال التى تُقبِلُ عليهِ فتدفعُهُ إلى نداء مَنْ يستعينه من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ أو زوجةٍ ، أو تحمله على الاستغاثة ، بالإشارة ، أو الإغاثة بالتنبيه والتحذير . ثم لما يتجددُ عليهِ مما يستخرج عجَبَه أو ما ينصبُّ عليهِ مما يستغلقُ ويستبهِمُ ، فيجيله إلى طلب الاستفهام أو الاستنكار . ولعلك لستَ تشكُّ فى أن ذلك هو أولُ مايبدأ الحىَّ على الأرض وما يتنازعهُ من الضرورة ، كما لا تشكُّ فى أن أوَّل مطاوع لهُ من الصوت هو ما يصوّتُ من الجوف والحلق ، دون ما يكون تصويتهُ من قِبَل اللسان والفم والشفة مما هو لا يُطيع إلَّا بالمداورة والهزّ والتمرين والدُّربه على حركة بعينها مرة بعد مرة . وفى أصوات سائر الحيوان - خلاف الإنسان - دليل ذلك والبرهان عليه وعلى صحة مذهبنا إليه ، فإن أصوات جميع الحيوان إنما هى أصوات حلقية تتردد ، إلَّا ماكان من مثل صوت الغراب والقط والجُندب والبازى والقَطَا وما إلى ذلك مما انفردَ من الحيوان والطير بحرفٍ يتردد ، فى مدارج نفسهِ أو منقط صوته . ثم لا يكون ذلك إلَّا حرفًا واحدًا مقاربًا ، أو بعض حرفين متجانسين يتليَّن شدتهما ألفٌ أو همزةٌ مختلسة تكون بينهما فاصلةٌ .

ولما كان من أول ضرورة الحياة الفطرية أيضًا أن يلاقىَ الإنسان من الهول مايفزعه ويخيفه وما يتعرض لهُ من الجرح والكدم فى صراع غيره من الإنسان والحيوان ، وما يجد بعد ذلك من الألم والشدة ، ثم ما يحمله عليهِ الألم الممضُّ من التأوه والأنين والغيظ والحنق ، ثم ماهو من دواعى الفطرة الإنسانية القائمة على الغرائز الاجتماعية كالذى يجده إذا توحَّد وانفرد من الحنين والحيرة والوجد - لمَّا

كان كل ذلك وما إليه مما يتصل به ، كان أيضًا من ضرورة الحافز الذى يستوفزهُ ويرتفع به إلى إرادة التعبير ، أن ينحو به إلى أول مايطاوع من الأصوات ويتلين ويخف ولا يحتاج إلى المداورة والتمرين .

فإذا تدبرت ذلك وأَوعبت نظرك إليهِ وفيهِ ، وتلمست كل الصلات والأسباب التى تمتد بهِ إلى سائر المعانى التى تنظر إلى هذا الأصل أو تتخايل عنهُ – عرفت أنهُ لابدَّ من اشتمال كل هذه المعانى على الدلالة الفطرية التى تدلُّ بها طبيعة الإنسان على أغراضهِ الأولية القديمة . فكُلُّ ما يرجعُ أصلُ معناه أو بعض فحواه إلى هذه الدلالة ، فالواجب لذلك إذن أن يشتمل على حرفِ الحلق الأوَّل وهو « الهمزة » ، أو على الحرف الثانى الذى يقاربه ويشابهه ولا يختلف عنه إلَّا بضغطهٍ هوائية رفيقة هينة فى جوار الحنجرة وهو « الهاء » . فإذا تصرفت قليلًا على مثل هذا الأصل ترقَّيت إلى « العينِ » ، « فالحاء » ، « فالغين » ، « فالخاء » ، مقدّمًا « الحاء » على جميع هذه الأربعة الأخيرة لخفتها وسهولتها وسلامتها واقترانها بالحشرجة الحُلوة اللطيفة الرقيقة المُنْسربة فى تصويتها كأهدإ انسرابٍ وأحنِّهِ وألينهِ .

فإذا صحَّ لكَ ، مانذهبُ إليه ، استخرجتَ من ذلك ضرورةً أن تكون جميعُ الألفاظ العربية – التى ندعى لها هذه الحكمة الشريفة : فى إمساسِ الحرف والكلمة شبهًا من معانى الفطرة ودواعيها – مبينة كل الإبانة عن هذا الرأى الذى نجرى إليهِ ، باشتمالها على أحد هذه الحروف الحلقية . ويقتضى ذلك أن تكون كل أدوات الاستفهام والنداء والإشارة والتنبيه والفزع والتحذير ، وسائر الألفاظ ذوات المعانى المقاربة لذلك – مشتملةً على أحد هذه الأحرف ثم يكونُ منهُ أيضًا أن جميع أسماء الأصوات الدالة على صوت الإنسان والحيوان والطير والحشرات قد جمَعتْ طرفًا صالحًا منها ، حين تكون هذه الأسماء – أو الأفعال – دالةً على حكايةِ صوتٍ حلقيٍّ يكون لهذه الخلائق . وإذن فواجبنا – بعد الذى قلناه وعرضناهُ – أن نقدّم الدليل من ألفاظِ العربية على صحة ذلك ، وأنه طريقةٌ ممهدةٌ على لسان هؤلاء الناس من العرب ، وأنهُ إذا كانَ مانقول بهِ ، فاللغة العربية هى حقًّا – على ما ادعيناه فى الكلمة السالفة – أدق اللغات ، وأكثرها احتفاظًا

بالمعانى الفطرية للحروف ، وبالحركات التى لجأ إليها الإنسان الأول فقرنها بالحروف للدلالة على معنًى ليس يقومُ الحرفُ على بيانِه كلهِ إذا أفردَ وحده للتعبير عنهُ .

ولقد رمينا إليك - فى الكلمة السالفة - طرفًا من القول فى حروف الاستفهام والنداء والتعجُّب والإشارة ومايجرى إليها من معنى الضمائر ، ثم فى الكلمات الثلاثية المضعَّفة التى اجتمع عليها فى التضعيف حرفان حلقيان وهى « أحّ » و« أهّ » و « أخّ » ، ثم كشفنا عن معانيها بعض الكشف . فالآن نستقِلُّ بك إلى حروف الحَلْق المشتركة مع حروفٍ أخر من حروف اللسان . ولن نستوعَب كلَّ ذلك ، فإنهُ يقتضينا - إن فعلنا - شرح اللغة كلها على مذهبنا ، وهذا إن اجتمع فى كتاب فجمعهُ فى مقالٍ يتعذَّر مرَّةً ويثقُلُ على قارئه أخرى .

فلو أخذت الهمزة وبدأت بها فى قولهم : « أبَّ » ، « أتَّ » ، « أثَّ » ، « أجَّ » ، « أدَّ » « أذَّ » « أرَّ » ، « أزَّ » ، « أسَّ » ، « أصَّ » ، « أضَّ » ، « أطَّ » ، « أظَّ » « أفَّ » ، « أكَّ » ، « ألَّ » ، « أمَّ » « أنَّ » ، « أىَّ » . وقد أمضينا القول على « أحَّ » ، « أخَّ » ، « أهَّ » ، « أنَّ » ، « أع » ، « أغ » ، « أأ » مما تجافوا عنهُ وتركوهُ وأهملوهُ لعلل ذكرنا بعضها ، كما أسقطوا أيضًا « أقَّ » ، وذلك لأن هذه « القاف » - كما علمت من أوَّل مقال لنا - هى الحرفُ الذى يلى مخرجهُ مخرج الحروف الحلقية ، فهو الحرف الثامن بعد الحروف السبعة الحلقية المبدوء بها فى ترتيبنا . فإذ كانت الهمزة أشدَّ الحروف مطالبةً بالانطلاق وحافزها أقوى حوافز الحروف الحلقية فاتباعها بالحرف الذى يدانى اللَّهاة وأقصى اللسان ويرتطم بالحنك الأعلى ويتردد فيهِ جاسيًا غليظًا متعسرًا [(١)] ، يكون مثقلًا على النطق ، ثقيلًا فى السَّمْع . وأيضًا فإن القاف - هى فى ترتيب الحروف الشديدة التى وصفناها لك - تلى الهمزة ، وهى أول هذه الحروف الموصوفة بالشدة ثم

(١) فالهمزة تريد الانطلاق والمضى حتى تلاقى الهواء ، والقاف تريد أن تقطع عليها ذلك لتستوفى حقها من المخرج ومنقطع الصوت الذى تتمثل فيه بترددها عليه ، وارتداد اللسان بها وبهوائها المحصور فى مخرجها ارتدادًا يعوق انطلاق صاحبتها التى تحفزها من ورائها . (شاكر)

الاستعلاء أيضًا . فهم لم يريدوا أن يجعلوها مفردَة فى كلامهم لذلك ، وقالوا « حق » و« عق » لما تعرف من صفة العين والحاء على مايتوجه إليك من فحوى بعض كلامنا آنفًا .

فنحن سنأخذ هذه الكلمات المبدوءة بالهمزة على ترتيب مُتّصل ، وذلك بأن نفصّلها لك على مخارج الحروف التى تليها ، فأول ذلك :

« أكَّ » فأصل هذه المادة عندنا من صوت احتكاك الأجسام اللينة بعضها ببعض لأن الكاف تمثّل فى النطق صوت شيئين ليّنين بَيْنَ بَيْنَ يزحمُ أحدهما الآخر زَحْمًا شديدًا . والأَكّة فى اللغة الزحمة والضّيقُ ، وأَكّهُ زاحَمَهُ . وهذا المعنى للكاف ثابتٌ فى قولك « حَكَّ » و« عكَّ » و« هَكَّ » الشىء سحقهُ ، وهذه كلها حروف حلقية تتبعها الكاف ، فإذا أنت أخذت فى مثل « بَكَّ » أى زَحَم ، و« تكَّ » الشىء اللّيّن الرطب وطأه فشدخه و« دكَّ » ، و« زكَّ » فى مشيه قارب خطوه وحَرَّك جسده واحتَكَّ بها ثوبهُ ، و« سَكَّ » و« شكَّ » و« صَكَّ » ... رأيتَ كلَّ هذه تَحْمِلُ كافُها لها معنى الاحتكاك أو تصويره أو مقاربة صوته [(١)] ولكنهُ فى « أكَّ » و« حَكَّ » أبينُ المعنيين ، لأنَّ الهمزة والحاء حرفان أصليان دالّان على الأصوات الأولى التى هى أقربُ من سواها إلى حكاية هذا الصوت [(٢)] .

ثم إليك « أشَّ » ، « أجَّ » والشين تحمل بطبيعتها صوتَها المتفشّى المستطيلَ المتليّنَ الذى يُهمس بهِ ، ويضعف لها الاعتماد فى مخرجها حتى يجرى معها النَّفَس بين الحَنَك الأعلى واللسان مع انفتاح الشفتين مع الإمالة الخفيفة . ويلقى هذا الصوت الأذن فيمثل صَوْت الحركة الخفيفة التى تكون كأنها من احتكاك

---

(١) اعلم أن لكل حرف معنى ، وأن اشتراك الحروف ذوات المعانى فى الكلمة الواحدة يسقط بعضها معانى بعض ، ومصطفى من المعنى الأصلى ما يتمثل به فى الحروف المجتمعة معنى آخر يجتاز عليهما أو يستمد منهما ، وعلى ذلك فعليك أن تنظر إلى هذه الأحرف على الأصل الذى نحاول بيانه لك . (شاكر) .

(٢) إذا رجعت إلى اللغة فى معاجمها الدقيقة الواسعة ، وجدت تقارب المعانى بين هذه الكلمات ظاهرًا حتى فى المجاز ، ولولا أن ذلك يستوعب أكثر مما نكتب هنا لأحطنا به . ولكنك إذا أردته على طريقتنا لم يباعدك ولم تخطئه . (شاكر) .

الثوب القشيب ، أو صوت وقوع الرش الخفيف من المطر ، أو صوت خفيف الورق الأثيث على أشجاره إذا فيَّأهُ النَّسيم المُتروّح ، ويمثِّل أيضًا صوت الضاحك إذا انقذف نَفَسهُ بضحكةٍ خفيفة لا تبلغ القهقهة ، مع انفراج الشفتين واستعلاء الشفة العُليا . وتجد أكثر هذه المعانى دائرة فى « أشَّ » ، « هشَّ » ، و« حشَّ » ، و« خشَّ » و« بشَّ » ، و« نَشَّت » القدر تنش ، وهو صوت غليانها ، و« رشَّ » الأرض بالماءِ . و« كشَّت الحيَّة » والمرأة أيضًا !! كشيشًا وهو صوت جلدهما إذا حكت بعضهُ ببعض . ولذلك كُلّهِ قيل فى « أشَّ » أن الأش والأشاش الطلاقة والبشاشة لما يتبع الارتياحَ والنشاطَ والخفة والضحك من الحركة التى تُسْمِع هذا الصوت ، وأشَّ غنمهُ كهشها ، وأشَّت الشحمة إذا نشَّت وقطرت فسمع لها مثل هذا الصوت .

وأما « أجّ » ، فمن قبل أن الجيم أجسى وأقسى وأغلظ صوتًا من الشين ، واللسان بها أشد ضغطًا للهواء فى غار الحَنَكِ الأعلى ، وصوتها جافٍ على السمع ظامئٌ لاماء فيه ولا قطر له ولا همس يأتى من قبله – لذلك دخلت مع الشين فى بعض معانيها ، ولكنها خرجت من بعضها الآخر بما أَخرجها من الميْزة التى مازتها عنها فى مستقبل السمع . وبعد ، فإن « أجَّ » هذه ومايليها من « هَجّ » ، « حَجّ » و« عَجَّ » بالدعاء ، و« ثجَّ » المطرُ يثجُّ سَالَ فسمع صوت سيلانِه ، و« هَجَّ » ، و« لَجَّ » – الجيم فى جميعها دالةٌ على حكاية صوتٍ وصفناه بما وصفناه فأُخِذَ منهُ « أجَّت » النار و« هَجَّت » إذا اتقدت فتعالت فاستعرت فاستطارت فسمع صوت تلهُّبها الذى تمثلهُ الجيم ، كما يظهر لك إذا تدبَّرتهُ وداورتهُ على المعنى الفطرىّ للحرف [1] .

وأما « أىّ » وهو اليائى الذى عددناه مع الشين والجيم فى مخرج الحروف

---

(١) أرجو القارىء أن يعذرنى فى اختصار القول ، فإنى وأنا أكتب هذا أكاد لا أمسك النفس عن الاستفاضة ، لأنى أكتب وأنا أحضّ النفس على التأمل ، فتنثال على المعانى فلا أدرى ما آخذ منها وما أدع ، وقد ذكرت فى الكلمة الأولى أن هذا بحث قديم أستثيره وأهيجه ، فربما غلبنى ما أجد منه على الضبط . والقارىء فى هدأته يستطيع – إذا تأمل – أن يصل إلى مثل الذى يريده منا إن شاء الله .

الشجرية فليس هذا مكان الإفاضة فى ذكره ، لما تعلم مما أشرنا إليه آنفًا فى بعض كلامنا من أنَّنا نرى فى الألف والواو والياء رأيًا نخالف بهِ ماذهب إليهِ أئمتنا رضوان الله عليهم . وأن فى سرّ تطوره من حرفٍ حلقىّ إلى حرفٍ شجرىّ موضعًا للنظر ، ومجالًا يجول إليهِ الرأى . فندعه إلى موضعه الذى يتنزل عليهِ فى أوانه إن شاء الله .

وإذا درجتَ إلى « ألَّ » ، رأيت اللَّام ، وهى عندنا من الحروف ذوات المعانى المتشابكة ، وذلك أن اللسان معها يعمل أعمال حروف كثيرة . ولقد علمت أن مخرجها - فيما أسلفنا - هو من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه حيث يندفع إليها الهواء المقذوف من الجوف ، فيحصُرُ اللسان هذا الهواء حَصرًا بين الشدّة والرخاوة فى الحنكِ الأعلى مما فوقَ الضاحك والنابِ والرباعية والثنية ، وعند ذلك يرتكسُ هذا الهواء المحصور فى جوف الفم من كِلَا جانبيه ، ثم إن بعض هذا الهواء يجول فى ميدان كأنهُ يروم المخرج من الخياشيم وهو مخرج النون . فلذلك ترى هذه اللاَّم إذا وقفت عليها فى مثل « هَلْ » و« قُلْ » ، قذفت من المنخرين نفسًا خفيفًا همسًا ، تنتفش معهُ الخِنَّابَتان [١] قليلًا قليلًا ، وكذلك تجدُها كأنْ قد أُشْرِبتْ من غنة النون فى أكثر المنطق . وهذه الملامح الكثيرة التى اختلستها اللام من الحروف التى تليها كالنون والراء والميم ، ومن الحروف التى سبقتها كالجيم والشين والضاد ، هى التى راحبت من معانيها وكثَّرتها وغمَّضتها على من يروم فقهها وضبطها ، وهى أيضًا التى جعلتها أكثر الحروف دورانًا فى كلام العرب للطفها وضعفها ورقّتها حيث كانت - ولا تكون هذه الرقّة التى فيها إلَّا مشوبةً ببعض القوَّة والشدَّة ، فهى إذن أعدل الحروف وأحسنها استواءً فلا تعتاص على باغيها . ولذلك أيضًا تجدها لا تدخلها العيوبُ التى تدخل سائر

(١) هما حرفا المنخرين - الثقبين - عن يمين وشمال من عرض الأنف ، وهما وحشيا الأنف . (شاكر)

(٢) لا نريد أن نفيض فى ذكر اللام وشرح معانيها ، فإنها تأخذ من كل معنى بسبب . ولو أردنا ذلك لخرجت وحدها فى أوراق صالحة لأن تفرد لها مقالة برأسها . (شاكر) .

الحروف كالراء التى تليها ، وهى تدخلها اللّثغة فى لسان الألثغ فلا يستقيم لهُ معها المخرج ، وإنما ينحاز الألثغ - إذا غلبته لثغتهُ من الراء إلى اللّام ، فاعرف هذا وتدبرْه وانعم نظرك له وفيهِ (٢) .

فالقول فى « ألَّ » ، « هلَّ » يفترق من القول فى اللّام التى تلى سائر حروف الحلق مثل « حلَّ » « وعلَّ » ولذلك نقصر القول على « ألَّ » و« هلَّ » ، فالألف والهاء هما عمدة باب الحروف الحلقية كما أمضينا آنفًا . واللام فى هذا الموضع تمثيل للإلحاح والتردد والانتشار ، ومعاناة للتحفز الذى يأتى بالصوت فى اندفاعهِ . ألا ترى أن صوت اللام - إذا حققتهُ - شبيهٌ بالجرْس الذى تسمعهُ من اصطدام شىء لين بعض اللين بشىء من مثله فيفزع سمعك إليه فتصغى له . وعلى ذلك فمعنى « ألَّ » - ابتداءً يتضمن الإشارة إلى حركة مقرونة بصوت بين بين ، فلا هو جاسٍ ظامئٌ ولا هو رطب ممتلئٌ بمائه . وكذلك هو فى اللغة : ألّ الفرس إذا أسرع فاهتزَّ فسمع من الرمل صوت حافره إذا وقع عليها متتابعًا مترددًا ، وكذلك ألّ البرق ، وألّت المرأة رفعت صوتها بالدعاء أو غيره . والأليل من ذلك هو الأنين والحنين عند الجزع ، وهو خرير الماء على التربة ، وهو صوت الحَصَى إذا وقع على الرمل . والقول فى « هَلَّ » قريب منهُ فقالوا : هَلَّ السَّحاب وانْهَلَّ بالمطر ، وذلك إذا قطر فوقع ماؤه فسمع صوت هذا الماء حين يصطدم الثّرى والرمل بحباتِه فى شدة انصبابِهِ ، وتردد هذا الصوت مرة بعد مرة ، ومنهُ « أهلَّ » إذا رفع صوته بالدعاء فردَّده .

فإذا صرتَ بعد هذا إلى الحرف الذى يلى اللام وهو النون فى « أنّ » ، حيث ينبعث الهواء المقذوف إلى الخياشيم ، فيحار فيها ويتردد ويجولُ ويُسمَع لجولانه فى الأنف صدًى ناعمًا تتبعه غُنَّة مُدَوّيةٌ باحتكاك الهواء بجدار الأنف - رأيتَ المعنى يتسلسل من اللّام إلى النون مختلفًا فى الدلالة اختلافًا بينًا مرة ومقاربًا مرة أخرى . ثم هو من أجل ذلك حرفٌ دَمِثٌ طيِّع مترفِّه ناعمٌ حُلو النَّغم لطيفُ الترديدِ ، يسيلُ مع الهواءِ لينًا ونعومةً ورقة ، لا تدركه الجفوةُ التى تعرض لسائر الحروف مع التحريك إذا حُرّك ، فهو لطيفٌ مطاوع ذو نَغَم إذا حُرِّك أو سُكّن .

فهو إذن أقرب الحروف للبيان عن المعانى الصافية التى لا تتحامل أصواتها إلى المادة وصوتها ، ولذلك يدور أكثر مايدور فى الألفاظ ذوات المعانى النفسية الصافيةُ التى تذوب فيها آلام النفس وأحزانها وأحلامها وأفكارها التى لا تتكلم إلَّا لمحًا وإشارة وتلويحًا . فكذلك هو فى معناه إذا قلت : « أنَّ » أنينًا ، و« حنَّ » حنينًا وحنانًا ، و« هَنَّ » هنينًا ، وهو كالحنين والأنين ، وكذلك « خنَّ » خنينًا ، وهو الانتحاب والبكاءُ الذى يتردد حتى يصير فى الصوت غُنَّة من جولان البكاء فى الخياشيم . وذلك كلهُ من أجل الحزن الذى لا يعبَّر عنهُ إلَّا بالصوت المبهم المطاوع لحركة الجسد إذا حُرِّك من نوازى الأحزان الداعية إلى هزّ الأعصاب وبالرجفة التى تلحقها من تنزِّيه فيها . ولكن انظر إلى « خنَّ » وتدبَّر فعل « الخاء » فى توجيه المعنى إلى الشموخ والاستعلاء ورفع الصوت بالبكاء ، وخشونة الصوت التى تكون فى هذا الضرب من البكاء أو الضحك المشوب بالترفُّع والاشمئزاز ، وإلى التعذُّر والمعالجة التى تجدها فى البدء بالخاء . ومن أجل هذا يتباين الأنينُ والحنينُ من « الخنين » تباينًا صحيحًا فى الدلالة على هذا الأنين المشوب بالصوت الذى وصفناه لك .

ونحن نقف بالقول عند هذا الحدّ الذى حدَّه الفرق الصوتى أيضًا بين النون والراء التى تليها فى المخرج ، ولعلك قد رضيت عن هذا الضرب من النظر ، ولعلك تحمل نفسك على معاناته وتكلفه ، ولعلك تجد لهُ من الطرافة والحسن واللذة ، وما يجعلك تمضى فى إتمام ما أسقطناه من كلامنا . فإذا فعلت عرفت لطف هذه اللغة ، وملابستها للطبع والطبيعة والفطرة ، وأن أصحاب هذا اللسان كانوا أرقَّ الناسِ إحساسًا ، وألطفهم فهمًا ، وأحسنهم تهديًا الى المعانى ، وأثقفهم لسحر الطبيعة وأنغامها ولغتها التى تجرى فى أرواح الشعراء بالمعانى والأحلام .

واعلم أننا إنما أخذنا لك من أبواب الكلام فى هذه الكلمات ، وما يُعَدُّ من أصول المادة اللغوية التى يكون الحرف دالًّا عليها ، وتركنا ماهو مجاز واستعارة فى مذهبنا ، وإن كان أصحاب علم اللغة يعدُّونه من أصل المادة أيضًا . وإذا جاء أوان شرح المجاز من المعنى الأصلى إلى المعنى الذى انتقل إليه اللفظ بعدُ ،

عرفت أن هذه اللغة شريفة جليلة دقيقة التركيب ، مع ماتتبين فى قسماتها من النبل والاستواء والاستقامة على مذهب لا يتخالف ولا يتناقض ولا يختلُّ والله المستعان .

* * *